ابو الحسن علي الحسني الندوي

دور الحديث
في
تكوين المناخ الإسلامي وصيانته

ملتزم النشر و التوزيع
المجمع الاسلامى العلمى ، ندوة العلماء
ص . ب - ١١٩ - لكنناؤ (الهند)

من مطبوعات « المجمع الاسلامى العلمى » ـ لكناؤ (الهند)

رقم - ١٤٨

الطبعـــة الثانيـة

١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

اهتم بالطبع
محمد غيـاث الدين الندوى



المطبعة النـــدوية

ندوة العلمـاء ـ لكهنؤ (الهنـــد)

هذه المحاضرة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

وبعد ، فهذه محاضرة أعدت على اقتراح من الأمانة العامة لرابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة ، افتتح بها موسم المحاضرات لعام ١٤٠١ه الذى نظمته الرابطة ، و ألقيت فى ليلة الثلاثاء ١٦ من ذى القعدة الحرام سنة ١٤٠١ه (المصادف ١٣/ من سبتمبر ١٩٨١م) فى قاعة المحاضرات فى مقر الرابطة بمكة المكرمة و قد حضرها عدد وجيه من العلماء و الأساتذة و المثقفين و أعيان الحجاج .

و المحاضرة تبحث - بأسلوب جديد - عن مكانة الحديث فى حياة المسلمين و حاجة الأمة إلى السنة ، و مدى الخطر و الضرر على الكيان الاسلامى ، و فخامة الخسارة للأمة الاسلامية ، إذا انقطعت صلة هذه الأمة - لا سمح الله - عن السنة المطهرة ، أو حيل بينها وبين الحديث النبوى الشريف ،

ومدى دقة المؤامرة و أبعادها التي تهدف إلى إنكار حجية الحديث أو الاستهانة بقيمته وجدواه ، و التشكيك فى صحته و تدوينه .

و قد تجنب المحاضر إعادة ما قيل و كتب فى هذا الموضوع قديماً وحديثاً ، فقد أشبع بحثاً و تحقيقاً ، و تكونت فيه مكتبة غنية ، لعل أحسن ما ألف - أخيراً - فى هذا الموضوع ، كتاب صديقنا الفاضل الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى السباعى - رحمه الله - الذى أسماه « السنة و مكانتها فى التشريع الاسلامى » .

وقد راعى المؤلف فى هذه المحاضرة نفسية الطبقة المثقفة الثقافة الغربية ، و الطبقة التى لم تتعمق فى الدراسات الاسلامية ، و هى منصرفة عن البحوث العلمية التى تتسم بالدقة و العمق و الاختصاص العلمى ، و يكثر تساؤلها : ما قيمة الحديث العملية ؟ و ما غناؤه وجدواه ؟ و ما هو الفراغ الواقع فى حياة المسلم و ما ينقص المجتمع الاسلامى إذا لم يتمسك بالسنة ولم يعرها الاهتمام ، أو إذا فقد الحديث بتاتاً - لاقدر الله - ؟ .

وقد حاول المحاضر أن يواجه هذه التساؤلات التى قد يجرى بها قلم الكاتب ، و ينطق بها اللسان ، و قد تجول فى الخاطر و تساور النفوس .

ويرجو بذلك أن يطمئن « العقل الرياضى » الذى لا يذعن

إلا للواقع ، ولا يقيم وزناً إلا لما كانت له قيمة عملية واقعية ، وقد أثبت أن معرفة سيرة الأنبياء ومن يقتدى بهم فى الديانات و التشريعات ، و أقوالهم و توجيهاتهم ، و البحث عنها والشغف بها سجية بشرية و حاجة فطرية ، إذا لم يوجد الأصل الصحيح الأصيل ، ملئ بالزائف الدخيل .

و هنا أشاد بخصيصة هذه الأمة التى حفظ لها حديث رسول الله — ﷺ — و أخباره و أقواله ، و دونت تدويناً لا نظير له فى تاريخ الأمم و الديانات ، و لا يحمل على مجرد مصادفة .

ثم استعرض التاريخ الاسلامى فبين أنه لولا السنة المحفوظة و الحديث المأثور ، لما أمكنت الحسبة على المجتمع الاسلامى ، و لما قام المصلحون و المجددون فى كل عصر و مصر ، يميزون بين السنة و البدعة ، و الحق والباطل ، و المعروف و المنكر .

فالحديث مدرسة دائمة خالدة ، يتخرج فيها مصلحون ومجددون ، و قوة دافعة إلى الأمام و إلى الاضطلاع بأعباء الدعوة و الحسبة ، و كذلك أشار إلى بعض الدوافع الحديثة إلى إنكار الحديث و التشكيك فيه ، و ما ستئول إليه هذه الحملة المغرضة من الخيبة و الاخفاق .

و المحاضرة — على وجازتها و على أنها ليست كتاباً ولا بحثاً موسعاً فى الموضوع[1] — فيها مادة كافيـــة لاقناع المثقفين المسلمين الذين رزقوا حسن النيـة و سلامة الفكر و الانصاف ، بضرورة السنة و الحديث النبوى ، و قيامهما بمهمة جذرية حاسمة فى حياة هذه الأمة و بقائها كأمة ذات شخصية فريدة و صاحبة رسالة سماوية خالدة ، وسمات لا تشاركها فيها أمة من الأمم ، « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيـــــد » .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

مكة المكرمة

٢٢ - من ذى القعدة ١٤٠١هـ



(١) المحاضر شاكر افضل الأستاذ نور عالم الأمينى الندوى لقيامه بترجمة بعض القطع الأردية التى جاءت فى كتابات المحاضر سابقاً ، و قد ضمت إلى هذه المحاضرة وأذيبت فيها .

بسم الله الرحمن الرحيم

دور الحديث فى تكوين المناخ الاسلامى و صيانته

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على أشرف المرسلين و خاتم النبيين محمد و آله وصحبه أجمعين ، و من تبعهم باحسان ، و دعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

العناصر التى كونت المجتمع الجديد ، و أنشأت الأمة الجديدة :

أما بعد ! فقد كانت بعثة النبى صلى الله عليه و آله وسلم ، مصدر كل خير ، و منبع كل سعادة ، و بفضل ذلك وحده نشأ هذا المناخ الدينى الفذ ، و المجتمع الاسلامى الفريد ، لكننا لو استعرضنا المنهج العملى فى هذا الشأن والوسائل التى استخدمت فى هذا الغرض ، لعلمنا أن مفتاح هذا الانقلاب الذى دهشت

منه العقول ، و تحيرت فيه الألباب ، و العناصر التى تكون منها هذا المجتمع الجديد ، و نشأت منها هذه الأمة الجديدة ، إنما هى الأمور الثلاثة :

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ شخصية النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، و حياته و سيرته و أخلاقه .

٣ ـ تعليمات النبي عليه الصلاة و السلام و إرشاداته ، و توجيهاته و أعماله التى يسمى مجموعها بالسنة ، و يحتوى عليه الحديث النبوى .

ولو تأملنا لعلمنا أن هذه العناصر الثلاثة بمجموعها ، قد تعاملت فى تحقيق الأغراض و الفوائد المنشودة من البعثة ، و ايجاد أمة جديدة ، و الحق أنه لا يمكن أن يوجد بدونها مجتمع مثالى ، و حياة مثالية ، و هيكل اجتماعى تتجلى فيه العقائد و الأعمال ، و الأخلاق و السلوك ، و العواطف و الرغبات ، و الميول و الأذواق ، و الأواصر و العلاقات ، إن الحياة شرط للوجود ، و من سنة الحياة و الكون أن السراج إنما يستنير من السراج .

وما نجده فى حياة الصحابة الكرام ، والتابعين لهم باحسان ،

بجانب العقائد والأعمال — من الخلق الاسلامى ، والذوق السامى ، و العواطف الدينية العميقة ، و الكيفيات الايمانيـة العجيبة — لم يكن نتيجة تلاوة الكتاب و حدها ، و إنما كانت ـ بجانب ذلك ـ فيها يد لتلك الحياة المثلى المؤثرة ، الحبيبة الأثيرة ، التى كانوا يتفيئون[1] ظلالها ، ويتذوقون جمالها ، و لتلك السيرة والأخلاق الفاضلة التى كانوا يشاهدونها ، و لتلك المجالس و الصحبة ، والارشادات والتعليمات التى ظلوا يستفيدون منها و يسعدون بها ، على عهد صاحب النبوة عليه الصلاة و السلام .

كيف عاش الصحابة الاسلام ، ذوقاً و مشاهدة و عملا ؟ :

و هذه العوامل بمجموعها شكلت ذلك الذوق الاسلامى الممتاز الذى لا يقتصر على التقيد الرسمى بالقواعد المقررة ، و الضوابط المرسومة ، و إنما كان مشحوناً بالحوافز و الدوافع الطبيعية ، والكيفيات العملية ، و روح العبادة الخالصة ، ويتسم ـ بجانب الوقوف عند الحدود و أداء الحقوق ـ بالمشاعر اللطيفة و الأحاسيس الرقيقة ، و دقائق مكارم الأخلاق .

---

(١) تفيأ الشجرة وفى الشجرة استظل بها ، و تتبع الظلال .

إنهم وجدوا القرآن الكريم ، يأمر باقامة الصلاة ، و وجدوه يلهج بذكر « الذين هم فى صلاتهم خاشعون[1] » ، و لكنهم لم يتوصلوا إلى كيفيتها الصحيحة الا حينما صلوا مع الرسول — صلى الله عليه و آله و سلم — فعلا ، و شاهدوا هيئة ركوعه وسجوده ، الأمر الذى عبروا عنه بقولهم : « وهو يصلى و لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء[2] » ، إنهم علموا من القرآن الكريم أن الصلاة شغل المؤمن المفضل ، و وظيفته الحبيبة الأثيرة ، و لكنهم لم يتمكنوا من تقدير مدى شغف المؤمن بها و حنينه إليها ، و رغبته فيها ، ما داموا لم يسمعوا لسان النبوة ـ على صاحبها الصلاة و السلام ـ بقول : « و جعل قرة عينى فى الصلاة[3] » و يقول بلهجة ملؤها الحب و الحنين و الولوع الزائد والهيام البالغ : « يابلال أقم الصلاة ، أرحنا بها[4] » ، و كذلك لم يتمكنوا من إدراك عمق الصلة بين المسجد و قلب المؤمن ، حتى سمعوا فى شأن صالحى الأمة : « و رجل قلبه معلق فى

---

(١) المؤمنون : ٢ .

(٢) رواه أبو دؤد ، و الترمذى .

(٣) رواه النسائى .

(٤) رواه أبو داؤد .

المساجد[1] » ، قد وجدوا القرآن الكريم يرغب فى الدعاء ، ويدعوا إلى الابتهال و التضرع إلى الله ، مرة بعد أخرى ، و وجدوه يبدى لومه و عتابه على الذين يستكبرون عن الدعاء ، و كانوا يعرفون مفهوم التضرع و الابتهال ، لكنهم لم يكتنهوا هـذه الحقيقة كلها إلا عند ما شهدوا النبى ﷺ يقول و قـد وضع فى « بدر » جبهته على الأرض : « أللهم أنشد عهدك ووعدك ، أللهم إن شئت لم تعبد[2] » ، وشهدوا كيفية القلق والاضطراب التى لم يسع أبا بكر أن يتحمل رؤيتها ، حتى قال له : « حسبك » إنهم كانوا يعرفون جيداً أن لب الدعاء و جوهره هو التضرع و الاعتراف بعبوديته ، و عجزه و فقره ، و ضعفه و قلة حيلته ، و كلما كان الدعاء حاملا لهذه الروح ، زاخراً بهذه الحقيقة ، كان أكثر قيمة و أهمية ، لكنهم لم يعرفوا حقيقة الاعتراف بالعبودية ، و العجز و التضرع ، والاطراح على عتبـة المولى الكريم ، ما لم يسمعوه ـ صلى الله عليه و آله وسلم ـ يقول فى عرفات :

« أللهم إنك تسمع كلامى و ترى مكانى ، و تعلم سرى و علانيتى ، لا يخفى عليك شئ من أمرى ، وأنا البائس الفقير ،

---

(١) متفق عليه .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، المجلد الثانى .

المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنبي ، أسألك مسألة المسكين ، و أبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل و أدعوك دعاء الخائف الضرير ، و دعاء من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذل لك جسمه ، و رغم لك أنفه ، أللهم لاتجعلني بدعائك شقياً ، وكن لي رؤفاً رحيماً ، يا خير المسئولين و يا خير المعطين[1] » .

كان خلقه القرآن :

إنهم رأوا القرآن الكريم يقرر أن الدنيا ظل زائل ، و أن الآخرة هي دار القرار ، و كانوا يحفظون « و ما هذه الحيوة الدنيا إلا لهو و لعب ، و إن الدار الآخرة لهي الحيوان[2] » ، إلا أنهم إنما عرفوا حقيقة ذلك و تفسيره بالواقع العملي من حياته صلى الله عليه و آله وسلم ، و فهموا ـ من أسلوب حياته و حياة أهل بيته ـ معنى كون الآخرة هي خيراً و أبقى ، وأنه كيف ينبغي أن تكون عيشة المؤثرين للآخرة على العاجلة ، و المؤمنين بـ ـ « أللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » و حياتهم العائلية ، و حينما كانوا يسمعون ـ بجانب شهودهم هـذا المنهج

(١) كنز العمال ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) العنكبوت — ٦٤ .

للحياة و هذا الموقف من الدنيا ، و هذا الترغيب المجمل ـ أقوال النبي صلى الله عليه و آله وسلم ، عن مصائب جهنم و شدائدها ، و عن نعم الجنة و لذائذها ، كان ينشأ فيهم مزيج من الخوف و الشوق ، و تتمثل الجنة و جهنم أمامهم كل وقت ، و كأنهم يشـاهدونهما بأم أعينهم .

و كذلك كانوا يعرفون معنى أمثال كلمات الرحمة ، التواضع ، و الرفق و الخلق ، و ما إليها من التعليمات و التوجيهات ، فقد كانوا أبناء اللغة ، و كانوا متعمقين في القرآن ، لكنهم لم يعرفوا مدى سعة هـذه الكلمات ، و طريق تطبيقها في الحياة العمليـــة و العمل بهـا ، في واقع الحياة عملا صحيحاً ، إلا عند ما شهدوا النبي صلى الله عليه و آله و سلم يعامل الضعفاء و العجزة ، و الأطفال و النساء ، و اليتامى و الفقراء ، و الشيوخ ، وعامة رفاقه و أصحابه ، وخدمه و أهل بيتـه ، و سمعوا أقواله و وصاياه بهذا الخصوص ، قـد عرفوا تعاليم القرآن في صدد أداء حقوق عامة المسلمين ، لكن هناك أشكالا و صوراً لهذه الحقيقة قـــد لا تخطر من كثير من النـاس على بال ـ مثل عيادة المريض ، و تشييع الجنائز ، وتشميت العاطس ـ ولو خطرت لما عرفوا لها قيمـــة ، وكذلك جاء في القرآن الكريم تعاليم مؤكدة فيما يتعلق

بالاحسان و حسن السلوك مع أهل الحقوق ، و البر بالوالدين ، و لكنى أتساءل كم من أساتذة الأخلاق و علماء النفس و التربية كان لهم أن يهتدوا إلى هذه المكانة السامية الفذة ـ فى شأن البر بالوالدين و الاحسان إلى أهل الحقوق ـ التى أشار إليها الحديث النبوى فى تنويه وإشادة : « إن من أبرالبر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى[1] » ، وكم من أذهان كان لها أن تتوصل إلى تلك المعانى السامية للوفاء و الكرم ، التى تكشف عنها هذه الرواية : « و ربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً ثم يبعثها فى صدائق خديجة[2] » .

هذا قليل جداً من كثير من أمثلة قسم الاجتماع والأخلاق فى الحديث النبوى الشريف ، تدل على مدى اهتمام الحديث بشتى شعب الحياة ، و التعاليم الجديدة الطريفة فيما يتصل بها ، و بذلك فهو « حجر الفلاسفة » للانسانية (إن لم يكن فى هذا التعبير إساءة أدب) ، ونعمة لا تقدر بثمن ، و لا تشترى بمال .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

(٢) متفق عليه .

لا بد من مناخ مناسب و بيئة متهيأة للأحكام :

إن التجارب الطويلة المتصلة التى مر بها تاريخ الأديان و الأقوام ، تؤكد أن مجرد الأمر القانونى ، و الضابطة الرسمية ليسا بكفيلين بأن يضفيا على عمل أو نشاط ، مسحة من الروح و الكيفيات المطلوبة ، و لا تستطيعان أن تنشأ المناخ الذى لابد منه ، حتى يجيء العمل مؤثراً مثمراً منتجاً . . فمثلا : إن مجرد الأمر المجمل باقامة الصلاة لا ينشيء تلك النفسية المؤمنة ولاتوجد تلك البيئة المناسبة من أجل صيانة روح الصلاة وهيكلها ، والحفاظ عليها ، و من أجل ظهور آثارها الروحانية و النفسية ، و العقلية و الاجتماعية ، و الخلقية والدينية ، إن ذلك يستوجب مبادىء و أصولا ، و إرشادات و تعليمات ، تضفى على العمل روعة وقيمة وتهبه تأثيراً و وقعاً ، ولذلك فتطلب القرآن الكريم بدوره للصلاة ، الوضوء و الطهارة ، و الشعور و التعقل ، و الخشوع و الخضوع ، و السكوت و القنوت ، و الجماعة .

غير أنه لا يخفى على العاقل الواعى أنه كلما كانت الصلاة مستوفية ـ بقدر ضرورى و على صورة ممكنة التطبيق ـ للآداب و الفضائل و إعداد الأرضية و التمهيدات الخارجية ، كان ذلك

أقوى على إيجاد جو تستطيع فيـــه الصلاة أن تجيء بخصائصها ونتائجها الروحانيـة والاجتماعية والخلقية ، وإن الدارسين للحديث و السيرة و الراسخين فيهما يعلمون أن عمل النبي ﷺ ، و تعليماته و إرشاداته قد زادت فى هذه الناحية زيادات قيمة وجيهة عادت بهـا الصلاة وسيلة أمضى إلى تزكية النفس ، و تربية الأخلاق ، و الانابة إلى الله ، و الانقطاع عن الدنيا إلى الآخرة ، و إلى تعليم الأمة و تربيتها و توعيتها ، و توحيدها و تنسيقها و جمع شملها .

مثلا : التركـيز على نيـــة الوضوء و الاشادة بفضلهـا و استحضارها ، و فضل الخطوات الماضية إلى المساجد ، والدعاء الذى يدعى به فى الطريق ، و أدب الدخول فى المسجد ، و تحية المسجد ، و السنن الراتبـــة ، و فضل انتظار الصلاة ، و ثواب الصلاة مع الجماعة ، وثواب الأذان و الاقامة ، و فضل الامامة و عظمتها ، و مكانتها و أحكامها ، و التأكيد على اتباع الامام فى أعمال الصلاة ، و تسوية الصفوف ، و فضل الحلق المنصرفـة إلى التعليم و التعلم فى المسجد ، و حلق الذكر و العبادة ، و آداب الخروج من المسجد ، و الدعاء الذى يدعى به عند ذاك ، و ما إلى ذلك ، و من الواضح أن الصلاة تأتى - بعد الأخـذ بهذه الآداب و الفضائل و التعليمات - أقوى ذريعـــة إلى التزكية

و الاصلاح ، و التعليم والتربية ، والانابة و الانقطاع إلى الله ، و أضف إلى ذلك كله ما ذكره الحديث ـ فى اهتمام أى اهتمام ـ من قصة كيفية صلاة النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، وهيامه بالصلوات النافلة ، و انهماكه عند تلاوة القرآن الكريم ، و انظر إلى أى درجة تبلغ صلاة الأمة بهذه المجموعة الكريمة ، من الآداب و التعليمات ، و أن أى جو نفسى روحانى ينشأ ، وقس على ذلك الصوم والزكاة ، و الحج ، و انظر فى آدابها وفضائلها ، و ما أثر من أقوال النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، و وقائع حياته فى شأنها ، وإلى أى مدى تبقى فعاليتها وقوتها إذا جردت عن هاتى الآداب والفضائل وفصلت عن الجو الذى يكونه له الحديث ، و إلى أى مدى تبقى صالحة لاثارة العواطف و إشعال الشوق ، و إيقاد جمرة الذوق ، و بعث الروح ، و شحن بطارية القلب و شحذ العقول و الأذهان ، و إعطاء قوة التماسك و الاستقامة ، و إيجاد مجتمع جديد صالح تسرى فيه روح العبادة و التقوى ، و الخشية و الانابة ؟ ! .

والواقع أن و قائع حياة النبي ﷺ المباركة ، و إرشاداته و تعاليمه ، تخلق ذلك الجو الذى تخضر فيه شجرة الدين ، وتورق و تثمر ، إن الدين ليس بمجموعة من الضوابط الخلقية الجافة ،

إنه لا يبق حيابدون العواطف والروح والوقائع والأمثلة العملية ، وخير مجموعة موثوق بها لهذه العواطف و الوقائع والأمثلة العملية هي مجموعة الحديث النبوى الذى أصبحت من خصائص الأمة الاسلامية التي لا يشاركها فيها أمة من أمم الأنبياء - عليهم الصلاة و السلام - و أصحاب ديانة من الديانات السماوية التى لا يزال بقايا أتباعها و المنتمين إليها ، — على اختلاف أنواعهم و مستوياتهم — على وجـــه الأرض .

الديانات القـــديمـــة ضيعت أخبـار حيـاة أنبيائهـا وسيرهم وأقوالهم الصحيحة ، وملأت الفراغ بقصص عظمائها :

و هذه الديانات - من يهودية و مسيحية ومجوسية و بوذية و برهمية - لم تلبث أن فقـــدت روحها و قوتها ، و صلاحيتها للحياة و البقاء ، فضلا عن النمو والازدهار ، لأنها لم تعد تحتفظ بأخبار حياة أنبيائها الموثوق بهـا ، التى يجدد الايمان و اليقين ، وتبعث الروح ، و تنفخ الحياة ، ولم يتيسر لهـذه الديانات ذلك الجو النفسى الروحانى ، الذى يتقدم فيه أتباعها روحياً و دينياً ، و يقاومون به المغريات المادية و غوائل الشيطان و النفس .

وأخيراً إنهم شعروا بالحجة إلى ذلك فانها حاجة فطرية ، فملأوا هذا الفراغ بقصص حياة كبار أتباع الديانات ، و أخبار

« أحبارها ورهبانها » وبما دار فى مجالسهم من حديث وحوار ، وما روى عنهم من أحاديث و أخبار ، وأثر عنهم من أقوال وآثار .

ومنا تألفت لنفس هذا الغرض صحف من تلمود[1] ، عكف عليها اليهود تلاوة و شرحاً و مطالعة و دراسة ، حتى غطت على التوارة نفسها ، ونقل من أقوال علماء اليهود ما يرجحها على صحف العهد القديم ، و قد جاء فيها - بطبيعة الحال - وبتأثير العقليـــة اليهودية الضعيفة ، والمجتمع اليهودى المنحط الخاضع للتأثيرات الأجنبية ، الشىء الكثير من نسج الخيال و ضعف الاعتقاد و ما ينطبق عليه قوله تعالى : « و ما قدروا الله حق قدره[2] » .

و لجأ المسيحيون بدورهم إلى تأليف كتب و إضافتها إلى صحف العهد الجديد ، ككتاب « أعمال الحواريين » و « رسائل

---

(١) اسم عام لاثنا والجيارة ، يحتوى على الشريعة الشفاهية ، و تقليدات أخرى لليهود ، و نسخ التلمود ـــ و أكثرها فى ١٢ مجلداً بقطع كامل ـــ تحتوى على أهم التفاسير والحواشى ، وهى كثيرة جداً (دائرة المعارف للبستانى) وقد جاء فى دائرة المعارف اليهودية : « أن التلمود أيضاً يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهـود » Jewish Encyclopadia Vol. XI and XII P. 569 - 690 .

(٢) الأنعام ـــ ٩١ .

بولس » و « رسائل بطرس » و « رسائل يوحنا » ، و ككتاب « مشاهدات يوحنـا » .

و هام البراهمة و أتباع الديانة الهندية القديمـة ، بكتاب « كيتـا » (GEETA) الذى يحتوى على أقوال أحد عظمائهم ، « سرى كرشن » (SRI KRISHNA) ورامائن (RAMAYANA) حكايات إلههم راما (RAMA) و ملحمة « مها بهارت » و غيرها من كتب القصص و الملحمات ، و كذلك كان شأن المجوس الفرس بشرح « أوستا » الذى يسمى « رندا فيست » .

وقـد عجزت هذه الكتب كلها عن العودة بهذه الشعوب المتدينة و الديانات القديمة إلى تعاليم دعاتها الأولين ، و تصوير حياتهم وسلوكهم و اتجاهاتهم الأصيلة ، و عن إثارة عاطفة التقليد لحياتهم و التأسى بأسوتهم ، و الغيرة على دعوتهم و عقيدتهم ، بل أساءت إليها أكثر مما أحسنت ، و كان السبب الرئيسى فى اعتلال ذوقها الدينى ، وانحراف فطرتها ، و إغراقها فى التقديس و التأليه ، و الخضوع الزائد لمـا كان أمعن فى الخيال ، و أبعد عن الحقيقة ، و أشد منافاة للفطرة السليمة ، و كان أثرها بعيداً و عميقاً و لا يزال ، فى آداب هذه الأمم و عقليتها ، و اجتماعها و ميولها و رغباتها و حولت هـذه الديانات بالتدريج مجموعة من

البدع و الخرافات و التأويلات الباردة ، و التفسيرات الجديدة المتطرفة ، تلاشت فيها تعاليم هذه الديانات الأصيلة كما تتلاشى قطرة من خل فى اليم .

مقارنة سريعة بين سير الأنبياء السابقين ومؤسسى الديانات ، وبين الحديث والسيرة :

و قد أصبح إفلاس هذه الأمم و الديانات فى سيرة أنبيائها ، و أخبار حياتهم الصحيحة ، حقيقة مقررة لا يختلف فيها اثنان[1] ، و إذا قارن الانسان بين السيرة النبوية ومجموعة السنة و دواوين الحديث النبوى وبين سير الأنبياء السابقين وما نقل فى حياتهم ، رأى العجب العجاب ، و ما تتحير منه الألباب ، فأكثرها توارت فى ظلمات الجهل والاهمال ، والحوادث التاريخية الدامية ، و قد أدت هذه الديانات رسالتها فى فترة زمنية خاصة ، و مشى فى ضوئها الجيل الذى كلف اتباعهم ، ثم لم تبق حاجة إلى الاحتفاظ بها ، و إلى أن تتوارثها الأجيال ، ويكفينا أن نستعرض حياة سيدنا المسيح عليه و على نبينا الصلاة و السلام ، فكان آخر الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه و آله وسلم ، وتنتسب

---

(١) ليراجع للتفصيل « الرسالة المحمدية » للعلامة الكبير السيد سليمان الندوى ، المحاضرة الثانية ، ص / ٤٦ - ٥٠ .

إليه أمة عرف شغفها بالعلم و التأليف ، وإفراطها فى حب نبيها ، و إطراؤها له إطراءاً بلغ حد التأليه و التقديس ، ولكنها لم تستطع أن تعرض على العالم إلا نتفاً من أخباره و أقواله التى لا تكون هيكلا من حياة بشرية كاملة يقلده الانسان فى حياته الفردية ، أو يسير فى ضوئه مجتمع فاضل ، و قد كان الاعتقاد السائد فى العالم المسيحى قبل أيام أن « العهد الجديد » يتضمن أخبار السنوات الثلاث الأخيرة من سيرة المسيح و أخباره ، فانتهى تحقيق الباحثين و أصحاب الاختصاص فى الموضوع فى الزمن الأخير إلى أنها لا تتجاوز أخبار خمسين يوماً من حياته ، لا أكثر و لا أقل .

يقول القس الفاضل الدكتور شارلس اندرسن اسكات (CHARLES ANDERSON SCOTT) فى مقال له فى دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة ، ج / ١٣ ص / ١٧١٠) : « ينبغى أن يتنازل الانسان عن محاولة وضع كتاب فى سيرة المسيح بكل صراحة ، فانه لاوجود للمادة والمعلومات التى تساعد على تحقيق هذا الغرض و الأيام التى توجد عنها بعض المعلومات ، لا يزيد عددها على خمسين (٥٠) يوماً » .

أما الأنبياء الآخرون ، و عظماء الملل و الديانات السابقة ،

فيصح القول بأن أخبارهم و صور حياتهم مطمورة فى ركام الماضى ، و هناك حلقات رئيسية لا يكمل بغيرها التاريخ ، و لا يتسنى بدونها الاقتداء و التقليد ، مفقودة لا يمكن البحث عنها ، و الاهتداء إليها فى هذا العصر المتأخر ، و هذا عين ما تقتضيه الحكمة الالهية ومنطق الأشياء ، فالمثل الانسانية لها أعمار طبيعية ، و حيوية محدودة فاذا انتهت لم تكن مصلحة فى تناقلها ، أما ما كانت الحاجة إليه قائمة دائمة ، فبقى على اختلاف الزمان والمكان و استمر و انتشر ، و أورق و أثمر[1] » .

أما الاسلام و حياة صاحب رسالته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فيختلف شأنهما عن شأن الديانات السابقة وأصحاب رسالاتها الأولين ، اختلافاً لا مزيد عليه ، فقد جاء فيها من الوضوح والتفصيل والدقة مالا يتصور فوقه العقل الانسانى ، و لا تؤيدها التجربة الطويلة لتدوين تاريخ العظماء وتسجيل وقائعهم وحوادث حياتهم ـ بما فيهم الأنبياء و أصحاب الرسالات ـ و نظرة عجلى فى كتب الحديث والشمائل ـ فضلا عن كتب السيرة والمغازى ـ تدل على صدق ما قلنا ، وحسب القارىء أن يستعرض الأحاديث الواردة فى حجة الوداع فى كتب الصحاح فيعرف كيف تطيب

(١) ما بين الواوين مقتبس من كتاب المحاضر « النبي الخاتم » ، ص / ١٦ - ١٧ .

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، عند إحرامه ، ومن باشر هذا التطيب ؟ ، و يعرف نوع هذا الطيب ، و طريقة إشعار رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم هديه ، و يعرف تفصيله وتحديده ، هل كان في الجانب الأيمن أو الأيسر ، و كيف سلت عنها الدم ، ويعرف كيف احتجم ، ويستطيع أن يحدد مكانه من الجسد الشريف و موضعه من الطريق ، و يستطيع أن يحدد المنازل بين المدينة و مكة ، و يعد أيامه فى السفر ، و ذلك فى زمان لم يعرف الناس فيه كتابة اليوميات و تدوين المذكرات ، ولا تفوته شاردة ولا نادرة ، حتى يعرف قصة خروج حية فى هذا المشهد الحافل و إفلاتها من القتل ، و يعرف كل من كان رديف رسول الله عليه و آله وسلم ، فى هذه الرحلة[1] ، ويعرف اسم الحلاق ، و كيف قسم شعره ، و من خصهم بالشق الأيمن ، و من خصهم بالشق الأيسر ؟ ، هذا فضلا عن خطبه صلى الله عليه و آله وسلم ، يوم عرفة و فى منى ، و وصاياه التى حفظت و بلغت ، و عملا بقوله ﷺ : « ألا فليبلغ الشاهد الغائب ،

(١) قد استوعب صاحب « نسيم الرياض » أسماء كل من أردفهم رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم فى حياته ، فذكر نحو ثمانية و ثلاثين (٣٨) رديفاً ، و زاد ابن منده على هذا العدد .

قرب مبلغ أوعى من سامع[1] » .

و قد اعترف بهذه الحقيقة الكتاب المنصفون من الغرب ـ ـ والفضل ما شهدت به الاعداء ـ يقول « جون ديون بورت » فى كتابه « السيرة المحمدية » عنوانه : « اعتذار من محمد والقرآن (APOIOGY FOR MOHAMMAD AND QURAN) :

« لا ريب أنه لا يوجد فى الفاتحين و المشرعين ، و الذين سنوا السنن ، من يعرف الناس حياته و أحواله ، بأكثر تفصيلا و أشمل بياناً ، عما يعرفون من سيرة محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) و أحواله[2] » .

و قد ألقى ريورند باسورث اسمث (BOSWORTH SMITH) عضو كلية التثليث فى أوكسفورد سنة ١٨٧٤ م محاضرات عن « محمد و المحمدية » فى الجمعية الملكية فى بريطانيا العظمى ، قال فيها :

« أما الاسلام فأمره واضح كله ، ليس فيه سر مكتوم عن أحد ، ولا غمة يبهم أمرها على التاريخ ، ففى أيدى الناس تاريخه

(١) اقرأ تقديم المحاضر لكتاب « حجة الوداع وعمرات النبى صلى الله عليه و آله و سلم » للعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا السهارنفورى .

(٢) نقلا من « الرسالة المحمدية » للعلامة السيد سليمان الندوى ، ص / ٩٨ .

الصحيح ، وهم يعلمون من أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، كالذى يعلمونه من امر لوثر و ملتن ، و إنك لا تجد فيما كتبه عنه المؤرخون الأولون ، أساطير و لا أوهاماً ، و لا مستحيلات ، و إذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة ، فليس لأحد هنا أن يخدع نفسه أو يخدع غيره ، و الأمر كله واضح وضوح النهار ، كأنه الشمس رأد الضحى ، يتبين تحت أشعة نورها كل شىء[1] » .

الحديث ميزان عادل لوزن حياة المسلمين و واقعهم ، و الحكم عليه فى كل عصر :

ثم إن الحديث ميزان عادل يستطيع المصلحون فى كل عصر أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمة و اتجاهاتها ، و يعرفوا الانحراف الواقع فى سير هذه الأمة ، ولا يتأتى الاعتدال الكامل فى الاخلاق و الأعمال إلا بالجمع بين القرآن و بين الحديث ، الذى هو يملأ هذا الفراغ الذى وقع بانتقال الرسول صلى الله عليه و آله وسلم إلى الرفيق الأعلى ، و هذه الفجوة لا بد منها فى السنن الالهية ، « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل[2] » ، « إنك

(١) الرسالة المحمدية ، ص / ١٠٠ .
(٢) آل عمران – ١٤٤ .

ميت و إنهم ميتون[1] »، فلولا الحديث الذى يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة ، ولولا التوجيهات النبوية الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام التى أخذ بها الرسول المجتمع الاسلامى ، لوقعت هذه الأمة فى إفراط و تفريط ، و اختل الاتزان ، وفقد المثال العملى الذى حث الله على الاقتداء به ، بقوله : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة[2] » ، و بقوله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله[3] » ، و الذى يطلبه الانسان ويستمد منه الثقة و القوة فى الحياة ، و يقتنع بأن تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسور و واقع .

الحديث وسيلة قوية للحسبة على المجتمع الاسلامى و مدرسة دائمة يتخرج فيها المصلحون و المجددون :

« ثم إن الحديث زاخر بالحياة و القوة و التأثير الذى لم يزل يبعث على الاصلاح والتجديد ، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد و البدع ، و حسبة المجتمع ، ولم يزل يظهر بتأثيره فى كل عصر و بلد ، من رفع راية الاصلاح و التجديد ، و حارب

---

(١) الزمر — ٣٠ .
(٢) الأحزاب — ٢١ .
(٣) آل عمران — ٣١ .

البدع و الخرافات ، و العادات الجاهلية ، و دعا إلى الدين الخالص والاسلام الصحيح ، لذلك كله كان الحديث من حاجات هذه الأمة الأساسية ، وكان لابد من تقييده وتسجيله وحفظه ونشره[1] » .

و قـــد ظلت كتب السنة والحديث ـ و لا تزال ـ مصدراً من مصادر الاصلاح و التجديد ، و التفكير الاسلامى الصحيح فى الأمة الاسلامية ، تلقى منه المصلحون فى عصورهم العلم الدينى الصحيح ، و الفكر الاسلامى النقى ، واحتجوا بأحاديثه و استندوا إليها فى دعوتهم ، إلى الدين و الاصلاح ، و فى محاربتهم للبدع و الفتن و الفساد ، و لا يستغنى عن هذا المصدر كل من يريد إرجاع المسلمين فى عصره إلى الدين الخالص ، والاسلام الكامل ، و يريد أن يوجـــد صلة بينهم و بين الحياة النبوية ، و الأسوة الكاملة ، و كل من تلجئه الحجة و تطورات العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة .

شهـادة التاريخ لتأثير الحـــديث
وكتب السنة فى الاصلاح والتجديد

و يشهد بهـذه الحقيقة تاريخ الاسلام و المسلمين نفسه ،

(١) مقتبس من كتاب المحاضر « رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام » ، ج / ١ ، ص / ٩٨ الطبعة الرابعة عام ١٣٩٤هـ .

فكلما ضعفت صلتهم بكتب الحديث و السنة ومعرفتهم بها ، على كثرة وجود الدعاة إلى الله ، والمشتغلين بتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق ، و الزهد فى الدنيا و العمل بالسنة ، و طالت هذه الفترة ، غزت المجتمع الاسلامى ، الزاخر بأصحاب الاختصاص العلوم الاسلامية ، المتبحرين فى العلوم الحكمية و الأدبية ، و فى عهد غلبة الاسلام و حكم المسلمين ، بدع طريفة و تقاليد عجمية ، وأعراف دخيلة ، حتى كاد يكون نسخة من مجتمع جاهلى ، وصدقت النبوة المحمدية و الحديث الصحيح : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، و ذراعاً بذراع[1] » ، و خفت صوت الاصلاح و خبا مصباح العلم .

و من شاء فليستعرض الموضع الدينى و واقع حياة المسلمين فى القران العاشر الهجرى فى الهند ، القرن الذى كادت صلة الأوساط الدينية و العلمية فى شبه القارة الهندية ، تنقطع عن علم الحديث الشريف و مصادر السنة الصحيحة ، و كانت تعيش فى عزلة عن مراكز العلم الدينى ، و تدريس الحديث الشريف ، فى الحجاز و اليمن ، و مصر و الشام ، و أصبحت مقتصرة على كتب المذهب و شروحها وتدقيقاتها وكتب الأصول والحكمة ، كيف

(١) رواه الحاكم .

فشت فيها البدع و عمت المنكرات ، و استحدثت أشكال متنوعة للعبادات و القربات ، و راجت سجدة التحية ، و اتخذت القبور مساجد ، و أوقدت عليها السرج ، و كثرت الاعياد الدينية و الاحتفالات في أيام وفاة الأولياء و الصالحين ، و عمرت المشاهد و أصبحت كعبة القاصدين ، حتى قيض الله لهذه البلاد أئمة مصلحين وعلماء ربانيين ، كالامام أحمد بن عبد الأحد السرهندى (م ١٠٣٤هـ) الذى أنكر على شعائر الشرك ، والتقاليد غير الاسلامية الهندية إنكاراً شديداً ، و أنكر وجود البدعة الحسنة » بالاطلاق وأنكر على وحدة الوجود ، و دعا إلى التمسك بالسنة ، ومحاربة البدعة دعوة واضحة مجلجلة ، وقال كلمته التاريخية المأثورة :

« نحن في حاجة إلى كلام محمد العربى صلى الله عليه و آله وسلم ، لسنا في حاجة إلى كلام الشيخ محى الدين ابن عربى ، أو صدر الدين القونوى و الشيخ عبد الرزاق الكاشى ، و إلى « النصوص » لا إلى « الفصوص[1] » ، إن الفتوحات المدنية أغنتنا عن « الفتوحات المكية[2] » .

(١) و (٢) إشارة إلى كتاب الشيخ ابن عربى المشهور « فصوص الحكم » و كتابه الكبير « الفتوحات المكية » ، مقتبس من رسالة رقم ١٠٠/٢ ، مجموع رسائل الشيخ المجدد .

و شمر معاصره العلامة عبد الحق بن سيف الدين البخارى الدهلوى (م ١٠٥٢ﻫ) عن ساق الجد فى نشر الحديث الشريف، و شرحه و تدريسه، وتلاهما شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولى الله الدهلوى صاحب « حجة الله البالغة » (م١١٧٦ﻫ) و أبناؤه النجباء، و تلاميذه النبغاء، و قاموا بتعليم كتاب الله وسنة رسوله، وشرح العقيدة الاسلامية الحنيفية، و نادوا بالدين الخالص، و قاموا بتدريس الصحاح الستة و نشرها و تقريرها فى المناهج الدراسية، حتى نفقت سوق السنة وقامت دولة الحديث فى هذه الربوع البعيدة عن مركز الاسلام، حتى أصبحت منتجعاً لرواد علم الحديث، و منهلا عذباً لطالبي التوسع و التحقيق، و قامت حركات إصلاحية من أقوى حركات الاصلاح و التجديد فى العالم الاسلامى كله فى القرن الثالث عشر، و حسب القارىء أن يقرأ تاريخ حركة الامامين الشهيدين السيد أحمد بن عرفان الشهيد، و الشيخ محمد إسماعيل الشهيد (١٢٤٦ﻫ) الاصلاحية الشاملة[1]، التى جعلت البلاد غير البلاد و الشعب غير الشعب،

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى كتاب المحاضر « إذا هبت ريح الايمان » طبع بيروت، و رسالة « الامام الذى لم يوف حقه من الانصاف والاعتراف » طبع لكهنؤ و القاهرة.

و هبت بهـا رياح الايمان و الحماس الاسلامى ، و الغيرة على دين الله و على عقيدته الصافية ، قوية جددت ذكريات القرون المشهود لها بالخير و أخبار الأولين ، وقـد أحييت هذه الحركة الاصلاحية و الدعوة إلى الدين الخالص كثيراً من السنن التى أميتت ، و قضت عـلى كثير من البدع والمحدثات و العـادات الجاهلية التى كانت لها جولة و صولة ، و ذلك كله بفضل ظهور آثار السنة ونشر الحديث ، و إنى واثق بأنه إذا لم يكن وجود لكتب السنة و دواوين الحديث ، و لم يكن سبيل إلى معرفـة السنن و التمييز بينهـا و بين البدع ، لم يكن وجود لهؤلاء المصلحين الكبار والأئمـة الاعلام ، الذين يتجمل بهم تاريخ الاسلام ، من عهد شيخ الاسلام الحافظ ابن تيمية (م٧٢٨ﻫ) إلى عهد شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب (م ١٢٠٦ﻫ) و معاصريه من المصلحين والمربين ، و من نبغ بعده من رجال الدعوة والاصلاح ، كالعلامة محمد بن على الشوكانى (م ١٢٥٥ﻫ) و الامير محمد بن إسماعيل الصنعانى (م ١١٨٢ ﻫ) و أحمد بن عبد الله بن إدريس الحسنى (م ١٢٩٣ ﻫ) ، والسيد عبد الله الغزنوى الامرتسرى (الشيخ محمد أعظم الكابلى) (م ١٢٩٨ﻫ) و الشيخ حسين على الوانى (م ١٣٦٣ﻫ) و الشيخ غلام رسول القلعوى

(م ١٢٩١هـ) وغيرهم[1] ، و هى قصة كثير من الأقطار العربية كالعراق و الشام و مصر ، و تونس و الجزائر ، و المغرب الأقصى و البلاد العجمية كأفغانستان و تركستان ، إلا أننا اقتصرنا على الحديث عن الهند ، رغبة فى الاختصار ، و لأن المحاضر يعرفها عن كثب لا عن كتب .

الحديث سجل الجو الايمانى الأول و خلده للأجيال القادمة :

و من دلائل كون الاسلام هو الدين الالهى الأخير ، و الرسالة الالهية الخالدة ، الباقية ، أنه لم يمن المسلمون بالعزلة الفكرية ، و الارتجال العملى و السلوكى الذى منيت به أتباع الديانات القديمة ، لعدم وجود الرصيد الدينى ، و الركيزة العلمية ، أما المسلمون فقد سجل الحديث النبوى الشريف ، لهم للأبد ، ذلك الجو الايمانى و الروحانى الذى عاش فيه و تربى الصحابة الكرام رضى الله عنهم ، و الكيفيات النفسية و الروحية التى لابست حياتهم ، و واكبتها طول الطريق ، و بذلك فقد أمكن

(١) اقرأ تراجم أعلام الهند فى كتاب « نزهة الخواطر و بهجة المسامع و النواظر » للعلامة عبد الحى الحسنى ، ج /٧ و ٨ ، طبع دائرة المعارف ، حيدر آباد (الهند) .

للأجيال المتلاحقة القادمة من المسلمين ، أن تصل بقفزة واحدة إلى الجو الذى تنور بوجود شخصية النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، يتكلم و الصحابة كلهم آذان صاغية ، و قلوب واعية ، كأن على رؤسهم الطير ، تتجلى فيه مواقف العمل بجانب الأحكام ، وبجانب أشكال العمل تتمثل مشاهد العواطف والكيفيات ، يستطيع فيه المرء أن يقدر بدوره أن أى نوع من الأعمال والأخلاق يخلقه الايمان ، و أن أى نوع من الحياة يوجده اليقين فى الآخرة ؟ أنها نافذة يستطيع المرء أن يطل منها على حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم العائلية ، و مشهد الحياة فى بيته ، و أشغاله فى الليالى ، و عيشة أهل بيته ، و يمكنه أن يرى مشهد سجوده بعينيه ، و يسمع دعاءه ومناجاته بأذنيه ، و هنالك هل يمكن العيون - التى ترى عينيه مستعبرتين و قدميه متورمتين - و الآذان التى تسمع « أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً[1] » ، أن تمنى بالغفلة والقصير ، إن العيون التى شهدت أن يمضى هلال بعد هلال ، ولا توقد نار فى بيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، و رأت بطنه معصوباً بحجرين ، و إن الحصير قد أثر فى ظهره ، و رأت أنه لا يقصد فراشه فى الليل حتى يفرق الذهب و الفضة المتبقيين ، و لا يقرله قرار

(١) متفق عليه .

حتى ينتهى من ذلك ، و رأت عند مرض وفاته أن الزيت لانارة السراج يستقرض من بيت الجار ، و كيف تغيب عنها حقيقة الدنيا ، إن الذى شهد أنه كيف يخدم أهل بيته ، و يحنو على صغاره ، و يتسامح مع خدمه ، و يعطف على رفاقه ، ويرحم أصحابه ، و يرفق بأعدائه ، أنى يقصد سواه ليتلقى درس الانسانية الكاملة ، و يتعلم مكارم الأخلاق ·

المجتمع الاسلامى بألوانه المختلفة
والحياة بحقائقها المتنوعة فى مرآة الحديث :

و إن هذا الجو لا يستفيد فيه المرء من شخصية النبي صلى الله عليه و آله و سلم وحدها و إنما سيجد أبواب بيوت الصحابة مفتوحة على مصراعيها ، و سيشهد ، دون ما عسر و كلفة ، حياة بيوتهم و أوساطها ، يراهم رهباناً فى الليل ، فرساناً بالنهار ، ويرى مشاغلهم فى الأسواق ، و تفرغهم فى المساجد ، و يرى فيهم التواضع و الايثار ، و الانشغال بالله عن النفس و إغراء النفس الأمارة بالسوء ، و طاعتهم الكاملة غالباً ، و سقطاتهم البشرية أحياناً ، هناك تتمثل أمام العين قصة إيثار أبى طلحة الأنصارى ، و قصة تخلف سيدنا كعب بن مالك من غزوة تبوك ، و امتحان حبه للرسول و وفائه للاسلام ، وشهادته على نفسه ، و استقامته فى

هذه المحنة ، ثم توبة الله عليه ، توبة مقرونة بالتوبة على الرسول و الخارجين فى الغزوة ، تكريماً له ، وتطييباً لقلبه و وقايته من « مركب النقص » ، و كذلك قصة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها و موقفها الحساس الدقيق فى قصة الافك ، و إيمانها و غيرتها و عزة نفسها ، ثم نزول براءتها من فوق سبع سماوات ، و موقف أبى بكر الصديق فى هــذا الموقف الحساس الدقيق المثير للغيرة و الطبيعة البشرية ، و صدقه و استقامته فيه ، و عودته إلى البر بمن آذاه فى أعز شيء إليه ، وبالجملة فان ذلك جو طبيعى تتجلى فيه الحياة بحقائقها المتنوعة ، و ألوانها المختلفة و الطبيعة البشرية بمظاهرها و خصائصها ، و حواهـا الحديث النبوى الشريف ، و سجلها باقية إلى يوم القيامة .

و بقاء صورة العهد النبوى — بجانب القرآن الكريم — مسجلة ، و بقـاء حديث صاحب النبوة ، و صورة جو عهدها ، معجزة من معجزات الاسلام ، ومزية من مزاياه ، التى لاتشاركه فيها ديانة ، إن الدين الذى جاء ليبقى إلى يوم القيامـــة و يقدم للأجيال القادمة نمـاذج عملية و يوفر دواعى العمل و نوازعه ، و يغذى العقل و القلب فى وقت واحد ، لا يمكنه أن يعيش بدون الجو ، وهذ الجو قد بات مصوناً محفوظاً بفضل الحديث .

عناية المسلمين بتدوين الحديث
وخدمته ، تقدير العزيز العليم :

إن دراسة تاريخ تدوين الحديث تدل دلالة واضحة على أن ذلك لم يكن صدفة ، أو بدعة أحدثها الناس فى العصور الأخيرة ، إن عناية الصحابة كتابة الحديث على العهد النبوى ، و تقييد عدد وجيه من الحديث ، ثم عناية التابعين - منذ أواخر عهد الصحابة بالذات - بتدوين الحديث و ترتيبه ، و تقاطر طلاب العلم من خراسان وتركستان ، و هيامهم بجمع الحديث ، و شغفهم باستظهاره ، و حفظه ، و ذاكرتهم القوية المدهشة ، و عزيمتهم و علو همتهم ، ثم وجود المجتهدين فى فن أسماء الرجال و فن الرواية ، الذين كانت لهم قدم راسخة و ملكة قوية ، و نظر ثاقب فى هذه الناحية ، ثم تفرغهم لذلك ، و انقطاعهم إليه ، و انشغالهم به عن نفوسهم و ملذاتهم ، ثم إقبال الأمة على الحديث إقبالا كلياً ، و شغفها بحديث رسولها شغفاً لا يوجد له نظير فى تاريخ الأمم ، و قيامها بحفظه و دراسته و نشره قياماً لا مزيد عليه ، و اشتغالها به من نواح شتى[1] ، إن ذلك كله

(1) راجع للتفصيل كتاب « رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام » ، ج / ١ ، عنوان : « المحدثون و علو همتهم » ، ص / ١٠٢ - ١٠٣ ، و الكتاب القيم « السنة ★

دليل واضح على أن الله تعالى كان يريد - كجمع القرآن - صيانة « صحيفة هذه الحياة » ، و بفضل ذلك بقى امتداد الحياة المباركة - على صاحبها الصلاة و السلام - و ظلت الأمة فى كل دور من أدوارها تتمتع بذلك التراث الروحانى و الطبيعى ، و العلمى و الايمانى ، الذى سعد به الصحابة رضى الله عنهم مباشرة.

توارث الأمة للذوق الدينى و المزاج الاسلامى :

وعلى ذلك فلم يجر التوارث فى خصوص العقائد والأحكام ، و إنما جرى كذلك فى الذوق و المزاج ، و العقلية و النفسية ، و بفعل الحديث ظل ذوق الصحابة ينتقل من جيل إلى جيل ، و من عهد إلى عهد ، و من طبقة إلى طبقة ، و لم يأت فى تاريخ الأمة الطويل حين من الدهر ، فقد فيه هذا الذوق كلياً ، فقد وجد فى كل عصر رجال يعدون بحق من حاملى ذوق الصحابة ، رغبة فى العبادة ، و تقوى من الله و خشية منه ، و استقامة و عزيمة ، و تواضع و احتساب نفس ، و حنين إلى الآخرة و رغبة عن الدنيا و عناية زائدة بالأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ، و كراهية شديدة للبدع ، و نزعة قوية إلى اتباع

★ ومكانتها فى التشريع الاسلامى ، الدكتور مصطفى السباعى ، عنوان : « تدوين السنة » ، ص / ١٢١ - ١٢٥ .

السنة ، الأمر الذى لا يحصل إلا بالانشغال بدراسة الحديث و العكوف عليه ، تعلماً و فهماً ، و تعليماً و تدريساً ، و شرحاً و تدويناً ، أو بملازمة أولئك الذين اقتبسوا من مشكاة النبوة ، و كان لهم نصيب غير منقوص من هذا التراث النبوى ، و ظلت الأمة تتوارث هذا الذوق عبر عصورها ، منذ القرن الأول إلى هذا القرن الرابع عشر الهجرى ، رغم طابع المادية و التدهور الذى يتسم به هذا العهد ، و لا تزال هذه الثروة القيمة باقية ، و الاستفادة منها قائمة .

دافع جديد إلى إنكار الحديث و السنة :

و قد علل العالم الغربى المهتدى محمد أسد (ليو بولد ويس سابقاً) التنصل من السنة و نزعة إنكار الحديث ـ التى ظهرت طلائعها فى الفترة الأخيرة ـ فى ضوء معرفته لنفسية الجيل الجديد ، و قوة سيطرة الحضارة الغربية ، بصعوبة التطبيق بين موازين الحضارة الغربية و قيمها و أساليب حياتها و « موضاتها » ، و بين السنة و الجمع بين الحياة التى تقوم على الحب العميق و الثقة التامة بصاحب الرسالة الاسلامية ، و مصدر السنة النبوية ـ عليه الصلاة و السلام ـ و بين تقديس الحضارة الغربية و النظر إليها كآخر ما وصل إليه العلم الانسانى ، و لعل هذا هو

السبب الذى يحث بعض القادة السياسيين و الحكام ، فى بعض الشعوب الاسلامية و الاقطار العربية ، على الهجوم على السنة و إنكار الحديث ، يقول محمد أسد :

« وفى هذه الايام التى زاد فيها نفوذ المدنية الغربية فى البلاد الاسلامية ، نجد سبباً جديداً يضاف إلى الموقف المستغرب الذى يقفه من نسميهم « متنورى المسلمين » من هذه القضية ، ذلك هو قولهم أنه من المستحيل أن نعيش على سنة النبى صلى الله عليه و آله و سلم ، و أن نتبع الطريقة الغربية فى الحياة فى آن واحد ، ثم إن الجيل المسلم الحاضر مستعد لأن يكبر كل شئ غربى ، و أن يتعبد لكل مدنية أجنبية ، لأنها أجنبية ، و لأنها قوية و براقة من الناحية المادية ، هذا التفرنج كان أقوى الاسباب التى جعلت أحاديث النبى عليه الصلاة و السلام ، و جعلت جميع نظام السنة معها لا تجد قبولا فى يومنا هذا ، إن السنة تعارض الآراء الأساسية التى تقوم عليها المدنية الغربية معارضة صريحة ، حتى إن أولئك الذين خلبتهم الثانية (المدنية الغربية) ، لا يجدون مخرجاً من مأزقهم هذا إلا برفض السنة ، على أنها غير واجبة الاتباع على المسلمين ، ذلك لأنها قائمة على أحاديث لا يوثق بها ، وبعد هذه المحاكمة الوجيزة يصبح تحريف تعاليم القرآن

الكريم ، لكى تظهر موافقة لروح المدنية الغربية أكثر سهولة[1] » .

التشكيك فى حجيـــة الحـــديث و إنكار السنة
مؤامرة على الاسلام ، ستبوء بالخيبة و الاخفاق :

و الذين يحاولون أن يحرموا الأمة هذا المنبع الفياض للحياة و الهداية و القوة ، بإثارة الشك و الارتياب فى حجيـة الحديث و قيمته ، و زحزحة ثقتها به ، إنهم لا يدرون مدى الضرر و الخسارة التى يلحقونها بهـا ، إنهم لا يدرون أنهم يكونون بذلك قد جعلوا أمتهم « محرومة الارث » محذوقة الصدر « مقطوعة الأصل » ، حائرة تائهة ، كما صنع أعداء اليهودية و المسيحية ، أو حدثان الدهر معهما ، فلو أنهم يصنعون ذلك عن شعور و وعى ، لما كان لهذه الأمة و دينها عدو ألد منهم وأحنق ، لأنه لا تعود إذن هناك وسيلة إلى إنشاء هذا الذوق الدينى من جديد ، الذوق الذى كان يمتاز به الصحابة رضى الله عنهم و الذى لا يمكن أن يوجـد إلا بصحبة النبى صلى الله عليـه و آله وسلم مباشرة ، أو بواسطة الحديث الذى هو صورة حية لذلك العهد ، و مـذكرة

---

(١) « الاسلام على مفترق الطرق » ، ص / ٩٥ - ٩٦ ترجمة الدكتور عمر فروخ ، طبع دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٥١ م .

ناطقة للحياة النبوية تزخر بكيفيات العهد النبوى ، وتتمطر بأريجه و تفوح برياه .

و قد أحسن الأستاذ محمد أسد فى كتابه القيم « الاسلام على مفترق الطرق » تشخيص هذا العداء للاسلام و مدى خطر هذه المؤامرة التى تحاول تجريد المجتمع الاسلامى من هذه القوة التى لا عوض عنها ، وهذه الثروة التى لا مثيل لها ، فيقول :

« لقد كان السنة الهيكل الحديدى الذى قام عليه صرح الاسلام ، و إنك إذا أزلت هيكل بناء ما ، أفيد هشك بعدئذ أن يقوض ذلك البناء ، كأنه بيت من ورق[1] » ،

و يتحدث عن تأثير إنكار الحديث و ضرورة اتباع السنة ، فيذكر نتيجة ذلك و يقول :

« و لكن تلك المنزلة الممتازة التى للاسلام — على أنه نظام خلق و عملى ، و نظام شخصى و اجتماعى — تنتهى بهذه الطريقة (يعنى بانكار الحديث وضرورة اتباع السنة) إلى التهافت و الاندثار[2] » .

---

(١) « الاسلام على مفترق الطرق » ص / ٨٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص / ٩٥ .

و بالرغم من هذه المحاولات الطائشة للتشكيك فى حجية الحديث و الدعوة إلى إنكار السنة التى ظهرت على مستويات مختلفة و بدوافع متنوعة ، عقائدية ، و سياسية ، و شخصية ، و للهروب من مسئولية العمل بالأحكام الشرعية ، و الالتزام الدينى ، فى فترات مختلفة[1] ، لم يزل شعار السنة عالياً ، و الدعوة إليها قائمة ، و قد عجنت بها طينة المجتمع الاسلامى ، و تغلغلت فى أحشائه ، و جرت منه مجرى الروح و الدم ، حتى أصبح من المستحيل تجريده منها ، و إقامة مجتمع جديد على مجرد الدعوة إلى القرآن الذى اقترن بعمل الرسول صلى الله عليه وسلم و شرحه له ، و تفصيل ما جاء فيه مجملا « و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم[2] » ، ولا يزال الحديث النبوى الشريف معتنى به ، دراسة و تفهماً و تحقيقاً و نشراً لمصادره التى لم تر ضوء الشمس بعد ، و لا تزال الحسبة قائمة على المجتمع الاسلامى ، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ، و الرد على البدع و المحدثات على قدم وساق ، بما فى ذلك من تقليد الحضارة الغربية التقليد الأعمى ،

---

(١) ليراجع للتفصيل الباب الثانى من كتاب « السنة و مكانتها فى التشريع الاسلامى » فى الشبه الواردة على السنة فى مختلف العصور ، ص / ١٤٣ إلى ١٥٣ .

(٢) النحل ـ ٤٤ .

و الردة العقائدية و الفكرية و الحضارية ، و قبول المدنية الغربية برمتها و بحذافيرها ، و على علاتها ، و مخالفاتها للحياة الاسلامية ، بفضل الاحتكام إلى السنة والرجوع إلى الحديث ، تحقيقاً لما أخبر به النبي صلى الله عليه و آله وسلم : « لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله لا يضرها من خالفها[1] » ، و فى حديث آخر : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة[2] » .

إن شأن المشككين فى حجية الحديث والحاملين للواء إنكار السنة ، مع الحديث النبوى والسنة المطهرة ، كما حكاه الشاعر العربى القديم :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها

فلم يضرها ، وأوهى قرنه الوعل

****

(١) رواه ابن ماجة .

(٢) رواه الحاكم .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
شهادة التاريخ لتأثير الحديث وكتب السنة فى الاصلاح والتجديد	٢٨
الحديث سجل الجو الايمانى الأول و خلده للأجيال القادمة	٣٣
المجتمع الاسلامى بألوانه المختلفة و الحياة	
بحقائقها المتنوعة فى مرآة الحديث	٣٥
عناية المسلمين بتدوين الحديث وخدمته ، تقدير العزيز العليم	٣٧
توارث الأمة للذوق الدينى و المزاج الاسلامى	٣٨
دافع جديد إلى إنكار الحديث و السنة	٣٩
التشكيك فى حجية الحديث و إنكار السنة مؤامرة	
على الاسلام ، ستبوء بالخيبة و الاخفاق	٤١

